AYAAT ILM ACADEMY
أكاديمية آيات للعلوم الإسلامية

المستوى الأساسي

منهج التزكية

الفصل الدراسي الثاني

تزكية ١٧٢

إعداد

د. محمد عزب
دكتوراه في الفلسفة جامعة القاهرة
مدرس أصول الدين والدعوة جامعة المدينة العالمية - ماليزيا

الطبعة الأولى
١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

أكاديمية آيات
Ayaat Academy

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلاما على النبي الأمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، أما بعد.

فهذا هو المقرر الثاني في مادة التزكية، التي تهدف في الأساس للارتقاء بالإنسان، وجعل حياته تسير في طريق الله تعالى وفق شريعته المطهرة. وقد سبقت موضوعات في المقرر الأول كانت كالتوطئة لهذا المقرر.

تدور موضوعات هذا المقرر حول عدد من العناوين بعضها في المنجيات المستحسنات، وبعضها في المهلكات المرديات، فهي تتناول المراقبة والإحسان، والمحاسبة والتوبة، وخطورة الإصرار على المعاصي، وأهمية الإخلاص، وخطورة الرياء، وضرورة الحياء، والورع، وأهمية الوقت.

وقد حرصنا أن تكون موضوعات المقرر لا تسير في جانب واحد من جوانب السلوك والتزكية، فبعضها مطلوبات وبعضها منهيات، حتى لا تمل النفس المنهج الواحد في الإلزام السلوكي، فإذا عرف السالك ضرورة الإخلاص تنبه بخطورة الرياء، وإذا عرف ضرورة المراقبة، تنبه بخطورة الإصرار على المعصية، وهكذا تكون نفسه سائرة بين مأمور يفعله، وبين منهي يتركه أو يحذره، ليصل للغاية المنشودة؛ وهي صناعة النفس الزكية، التي يبيت صاحبها وقد ملأت عليه السعادة بربه ودينه ورسوله حياته، وذاق من خلال هذه الأمور حلاوة الإيمان، وترقَّى لسجود القلب للرب العظيم الذي لا قيام منه البتة.

وقد جاءت الموضوعات في لغة سهلة، استصحبنا فيها الدليل من القرآن والسنة، ووضعنا عناوين معينة على فهم واستيعاب الموضوع، ولم تكن الإطالة هدفًا في كتابة الموضوعات، فإن من رام المطولات فكتب التراث مغنية.

إلا أن الأمر هنا يوافق ويناسب المتطلع لتزكية نفسه، وإكسابها معرفة بفضائل لا غنى له عنها.

هذا وإن كان الكتاب في غرضه مقررًا دراسيًّا، فهو يناسب القراء العاديين، ولا يرهق ذهنهم لا بعبارات ولا فقرات تعليمية، يعزُّ عليه فهمها، أو يصعب عليه الوقوف على المراد منها، فيمكنه أن يستصحبه في رحلة يقرأ منه أو في مجمع من الناس يقرأه عليهم، وذلك لجمعه بين السهولة في التناول، والدقة والاختصار، ومناسبة المتعلمين.

والله تعالى حسبنا نسأله أن ينفع به مؤلفه، وقارئه والمستفيد منه بوجه.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

منهج

التزكية

المحاضرة الأولى

المراقبة والإحسان

Ayat Academy

المحاضرة الأولى: المراقبة والإحسان

في نهاية هذا الدرس يستطيع الطالب أن:

1. يعرِّف المراقبة والإحسان.
2. ينتبه للعلاقة بين المراقبة والإحسان.
3. يتأمل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الموجهة للمراقبة والإحسان.
4. يدرك الآثار السلوكية على النفس والمجتمع للتخلق بالمراقبة والإحسان.
5. يعرف كيف يفعِّل خلق الإحسان والمراقبة.

تعريف المراقبة

المراقبة لغة: مأخوذة من مادة رقب التي تدل على الانتصاب لمراعاة شيء، وراقب الله تعالى في أمره أي خافه[1].

المراقبة اصطلاحا: هي استدامة علم العبد باطلاع الرب عليه في جميع أحواله[2].

ومعنى ذلك أن يظل المرء في كل فعل يقدم عليه عالماً أن الله تعالى مطلع عليه، مهما خفي فعله أو ابتعد به عن أنظار الناس، قال الجنيد: من تحقق في المراقبة خاف على فوت حظه من ربه عز وجل لا غير.

وللمراقبة علامة يعرف بها العبد نفسه، هل هو ممن يراقب الله تعالى أم ممن يضيع وينسى اطلاع الله عليه؟، قال ذو النون المصري: علامة المراقبة إيثار ما آثر الله تعالى، وتعظيم ما عظم الله تعالى، وتصغير ما صغر الله تعالى.

ومعنى ذلك أن تكون اختيارات المرء ونظرته للأمور كلها تقاس بمنهج الله، فما صغره الله يراه صغيرا، وما عظمه يراه عظيما، وما أمر به يراه واجبا، وما نهى عنه يبتعد عنه، وإنما يتعاطى الإنسان بهذا الخلق إذا غلَّب المراقبة على نفسه.

ثانيا: الإحسان

الإحسان: ضد الإساءة، وحسنت الشيء تحسينا: زينته[3].

ويطلق ويراد به: الإنعام على الغير، والإحسان في الفعل[4].

الفرق بين الإحسان والإنعام

الإحسان يكون لنفس الإنسان ولغيره، تقول: أحسنت إلى نفسي، والإنعام لا يكون إلا للآخر وعليه[5].

الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الموجهة للمراقبة والإحسان

وردت آيات قرآنية تلفت النظر للمراقبة، ورعاية الرب الرقيب سبحانه على كل شيء، فمن ذلك: قوله تعالى:{وَكَانَ

1() لسان العرب (1/ 426).

2() الرسالة القشيرية (1/ 329)، والتعريفات (ص: 210).

3() الصحاح (5/ 2099).

4() المفردات في غريب القرآن (ص: 236).

5() لسان العرب (13/ 117).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا}[الأحزاب: 52] وقوله تعالى:{وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}[الحديد: 4]، وقوله:{أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى}[العلق: 14] ،وقوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[النحل: 90].

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر، فأووا إلى غار في جبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل، فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله، فادعوا الله تعالى بها، لعل الله يفرجها عنكم، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، وامرأتي، ولي صبية صغار أرعى عليهم، فإذا أرحت عليهم، حلبت، فبدأت بوالدي، فسقيتهما قبل بني، وأنه نأى بي ذات يوم الشجر، فلم آت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب، فقمت عند رءوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما، والصبية يتضاغون عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا منها فرجة، نرى منها السماء، ففرج الله منها فرجة، فرأوا منها السماء، وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها، فأبت حتى آتيها بمائة دينار، فتعبت حتى جمعت مائة دينار، فجئتها بها، فلما وقعت بين رجليها، قالت: يا عبد الله اتق الله، ولا تفتح الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا منها فرجة، ففرج لهم، وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيرا بفرق أرز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه فرقه فرغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرا ورعاءها، فجاءني فقال: اتق الله ولا تظلمني حقي، قلت: اذهب إلى تلك البقر ورعائها، فخذها فقال: اتق الله ولا تستهزئ بي فقلت: إني لا أستهزئ بك، خذ ذلك البقر ورعاءها، فأخذه فذهب به، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا ما بقي، ففرج الله ما بقي»[أخرجه مسلم]

ففعل الثلاثة دار بين الإحسان والمراقبة، فكان الفرج، ومهما قيل أيهم أفضل في عمله، فالملاحظ أن الفعل في ذاته كان منجيًا وفارجًا للهم، وهكذا يكون الفعل النابع من الإحسان، أو الترك النابع من المراقبة سببا في النجاة دنيا وآخرة.

العلاقة بين المراقبة والإحسان

ربما يظن المرء أن المراقبة والإحسان يدلان على معبر به واحد، لما أنهما عبارة عن رقابة نفسية داخل النفس، لكن سئل ابن عطاء: ما أفضل الطاعات؟ فقال: (مراقبة الحق على دوام الأوقات)[1].

فالمراقبة بهذا تختلف عن الإحسان؛ إذ الإحسان في العبادات، والمراقبة تكون في العبادات والمنهيات، فالمحسن يعبد الله كأنه يراه، فيستغرق في العبادة بكل نفسه، أما المراقب فهو الذي يخاف الله قبل الإقدام على عمل، ويسأل نفسه عما

1() الرسالة القشيرية (1/ 330).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

لله تعالى فيه من أمر بفعله أو نهي عن عمله.

فنلاحظ أننا مأمورون بالإحسان إلى النفس، والإحسان إلى الوالدين، والإحسان إلى الخلق، والإحسان في العبادة والعمل.

لكننا مأمورون بمراقبة الله تعالى في السر والعلن.

فالفرق بين المراقبة والإحسان ليس كبيرا، ويعزز هذا تعريف التهانوي للمراقبة بقوله: (حقيقة المراقبة أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك)[1] فعرفها بنفس معنى الإحسان.

يمكننا أن نقول إذا: إن هناك تلازما بين الإحسان والمراقبة، وأنهما كالإسلام والإيمان في الاجتماع والافتراق، فلا يسع الإنسان إلا أن يكون مسلمًا مؤمنا، ولا يسعه إلا أن يكون مؤمنًا مسلما، وإذا كان الإيمان أشمل، فالتنويه بالإسلام أكثر .

كذلك نجد التنويه بالإحسان أكثر، والالتفات إليه كذلك، لكن تظل المراقبة مع الإحسان لا غناء لأحدهما عن الآخر، سئل ذو النون: بم ينال العبد الجنة فقال: (بخمس: استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب)[2].

فلا يخرج الإحسان والمراقبة عن هذه القيود.

القيمة السلوكية للإحسان والمراقبة

إن القيمة السلوكية للمراقبة والإحسان تبرز في تربية الرقابة الداخلية للذات على الذات، وجعل رقابة النفس هي المانعة من فعل المعصية، وتحكيم الله تعالى في الإقدام والإحجام، ثم إن الإحسان الذي هو فعل الحسن هو من التعبد لله بأسمائه الحسنى، فالله تعالى يحب المحسنين.

يقول ابن القيم: (إن منزلة الإحسان هي لب الإيمان، وروحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل. فجميعها منطوية فيها، والإحسان: جامع لجميع أبواب الحقائق. وهو أن تعبد الله كأنك تراه)[3].

إن بالإحسان والمراقبة يتحقق المعنى الأجلّ لمسألة الهجرة إلى الله ورسوله، وهي الهجرة التي لا تنقطع أبدا، فمتى استشعر المرء أن الله تعالى عليه رقيبا، قاده شعوره هذا إلى تحسين العمل، والإقدام على الأحسن منه.

قال الغزالي: (قال سهل بن عبد الله التستري: كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل، فأنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار، فقال لي يوما: ألا تذكر الله الذي خلقك؟! فقلت: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك: الله معي، الله ناظر إليّ، الله شاهدي. فقلت ذلك ليالي، ثم أعلمته. فقال: قل في كل ليلة سبعة مرات، فقلت ذلك ثم أعلمته، فقال: قل ذلك كل ليلة إحدى عشرة مرة، فقلته فوقع في قلبي حلاوته

1() كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (2/ 1506).

2() إحياء علوم الدين (4/ 398).

3() مدارج السالكين (2/ 430).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمت، ودم عليه إلى إن تدخل القبر، فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة فلم أزل على ذلك سنين ثم قال لي خالي يوما: يا سهل، من كان الله معه وناظر إليه وشاهده... أيعصيه؟! إياك والمعصية)[1].

وإذا نسي المرء اطلاع الله عليه وأنه أقرب إليه من نفسه- تاقت نفسه للحرام وتفلتت منه ولم يقو على كبح جماحها.

انعكاس المراقبة والإحسان على المجتمع

لا تقف أخلاق الإحسان والمراقبة عند حدود القرابة القريبة، بل تتسع دائرة الإحسان لتعم المجتمع كله، قال الله تعالى:{وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا}[النساء: 36]

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإحسان في كل صوره، فقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء..»[أخرجه مسلم]

ويمكن أن يضاف لذلك دائرة الحياة بكل ما فيها من نبات أو حيوان أو جماد وإلى ذلك يشير قول الله تعالى:{وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[الأعراف: 56][2]

ونرى الانعكاس لهذين الخلقين كالتالي:

1- إتقان العمل والتفاني في تجويده، فإن من علم أن الله عليه رقيب أحسن في العمل وأتقنه على الوجه المطلوب.

2- البعد عن الاستيلاء على الحقوق بغير حق، فإن من راعى الله تعالى استعظم الحرام وفر منه.

3- رعاية الأمانة بأقصى رعاية، وحفظ العهود والمواثيق، فإن من رغب أن يكون من المحسنين فإنه لا يخون أبدا.

4- الفرار من المعصية والتباعد عنها، فإن من رأى الرب عليه رقيبا ورغب في نيل الإحسان ابتعد عن المعصية وفر من أربابها.

وللعابدين مع المراقبة والإحسان أحوال

من تأمل حال الرسل والأنبياء مع المراقبة رأى كيف كانت رعايتهم للإحسان والمراقبة، فقد أحاطت امرأة العزيز بنبي الله يوسف عليه السلام، ولم تترك له مجالاً للفرار حتى دعا ربه قائلا :{قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}[يوسف: 33].

يخرج الورع في الأساس من مشكاة الإحسان والمراقبة، ولا يستطيع الإنسان أن يبلغ حالة الورع إلا إذا جعل رب العزة عليه رقيبًا في الإقدام والإحجام، في القول والفعل.

كيف أفعل خلق الإحسان والمراقبة؟

1() إحياء علوم الدين (3/ 74).

2() نضرة النعيم (2/ 73).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

إذا رام المرء تفعيل خلق المراقبة والإحسان بادر إلى النظر في الفعل، وتمثل أحوال الصالحين، وعلم يقينًا أن الدنيا تسير به نحو نهايته، وأنه مهما طال بقاؤه، أو دامت عافيته فلذلك منتهى، وفي مصائر من سبق خير دليل على ذلك، وكم من أناس نسوا الله في غمرة انشغالهم بالحياة حتى ألقت بهم في باب الشبهات والشهوات، ففارقت أرواحهم أجسادهم وهم متلبسون بطاعة لم يحسنوا أداءها على وجهها، أو معصية تجرأوا عليها ولم يراقبوا الله حين الإقدام عليها.

ينبغي للمرء أن يضع نفسه مكان الآخر في معاملته إياه، ما الذي يرضيه وما الذي يغضبه، وأن يراعي في مكاسبه أكل الحلال، وألا يزهد في الدنيا بتركها لمن يفسدها بل يحسن الفعل ويحسن السعي، ويرعى الله في هذين، ويعلم أن اطلاع الله عليه أقرب من خروج الهواء ودخوله إلى صدره.

أكاديمية آيات
Ayaat Academy

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

منهج

التزكية

المحاضرة الثانية

التوبة والمحاسبة

Ayaat Academy

في نهاية هذا الدرس يكون الطالب قادرًا على:

1. تعريف التوبة، والمحاسبة.
2. أن ينتبه بالفرق بين التوبة، والمحاسبة، ويتعرف على العلاقة بينهما.
3. أن يورد الآيات والأحاديث الدالة على ضرورة التوبة، والمحاسبة.
4. أن ينتبه بقصص التائبين.
5. أن يلحظ كيف يتوب ويقلع عن المعاصي.
6. أن يتذكر أن صحة القلب لها علاقة بالتوبة والمحاسبة.

تعريف التوبة:

التوبة لغة من (ت.و.ب) وهي مادة تدل على الرجوع. يقال تاب من ذنبه، أي رجع عنه، وأقلع[1].

التوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه والعزيمة على ترك المعاودة وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، والتوبة: النصوح توثيق العزم على أن لا يعود، وهي أيضا: الرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرب[2].

تعريف المحاسبة:

المحاسبة: من (ح.س.ب) الحساب والحسابة: عدك الشيء. وحسب الشيء يحسبه، بالضم، حسبا وحسابا وحسابة: عده.

المحاسبة اصطلاحا: المحاسبة مفاعلة من الحساب وهو استيفاء الأعداد فيما للمرء وعليه[3].

أهمية المحاسبة

المحاسبة باب من أبواب رقابة المرء على ذاته، إذ يعد على نفسه سقطاتها وهناتها، ويعد عليها تقصيرها في جنب الله تعالى، وفي الحديث عن شداد بن أوس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «الكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[الترمذي، وهو حسن].

ومعنى قوله: من دان نفسه يقول حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة.

ومما يؤكد مسألة الحساب وأهميتها أن اليوم الذي يجازي الله تعالى فيه العباد على أعمالهم هو يوم الحساب، وفي التنزيل العزيز :{وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ}[غافر: 27].

يروى عن عمر بن الخطاب، قال: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم

1() مقاييس اللغة (1/ 357) المصباح المنير (1/ 78).

2() المفردات في غريب القرآن (ص: 76)، والتعاريف (ص: 112).

3() التعاريف (ص: 640).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا)، ويروى عن ميمون بن مهران، قال: (لا يكون العبد تقيا حتى يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه من أين مطعمه وملبسه)[1].

قال الحسن البصري: (المؤمن: كثير الوقار، مكرمٌ للجار، مطيعٌ للجبار، هاربٌ من عذاب النار، نفسه بمعرفة الله شاهدةٌ، وجوارحه لله ذاكرةٌ، ويده بالمعروف مبسوطةٌ، وهو في محاسبة نفسه في تعبٍ، والناس منه في راحةٍ)[2].

وقال الغزالي: (حتم على كل ذي حزم، آمن بالله واليوم الآخر، أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها؛ فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد فانقباض هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل)[3].

وأيسر الناس حسابا يوم القيامة الذي حاسبوا أنفسهم في الدنيا فوقفوا عند همومهم وأعمالهم فإن كان الذي هموا لهم مضوا وإن كان عليهم أمسكوا قال: وإنما يثقل الأمر يوم القيامة على الذين جازفوا في الأمر في الدنيا أخذوها من غير محاسبة فوجدوا الله قد أحصى عليهم مثاقيل الذر وقرأ:{مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا}[الكهف: 49]

إن حساب النفس هو نوع من المراجعة الدائمة على تقصيرها، وفيه سرعة لتدارك ما فات، أو تلافي غائلة التقصير مستقبلا.

وهو شعور في نفس صاحبه بضرورة الاتصال الدائم بالله تعالى، وحسن القيام بما أمر أو البعد عما نهى، وما دام المرء في حساب نفسه فهو على دين متين، وفي الصحيح عن أبي هريرة، قال: جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان»[أخرجه مسلم].

ولولا محاسبة النفس والخوف من الخوض فيما حرم الله تعالى، ما شكا هؤلاء الأصحاب مما في صدورهم من وسوسة الشيطان.

أهمية التوبة

وردت في التوبة آيات قرآنية وأحاديث نبوية عديدة، فمن ذلك قوله تعالى:

1- {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[النور: 31].
2- {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}[البقرة: 222].

1() سنن الترمذي (4/ 638).
2() آداب الحسن البصري لابن الجوزي (ص: 136).
3() إحياء علوم الدين (4/ 394).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

ومن الأحاديث

ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»[أخرجه مسلم].

فمعنى ذلك أن باب التوبة لا يغلق أبدًا وليس له وقت ككثير من العبادات المحددة بوقت لا تقبل إذا لم يلتزم به العامل.

كما أن من يسيء بالليل إن تاب بالليل توبة نصوحًا تاب الله عليه، وليس المعنى أن من يعصي بالليل فتوبته لا تكون إلا بالنهار، إنما من عصى بالليل، وراجع نفسه ندمًا وتأنيبًا واستغفر واستوفى شرائط التوبة تاب الله تعالى عليه.

والتوبة هي المنزلة التالية للمحاسبة، فإن من حاسب نفسه ووقف بنفسه على تقصيره وتفريطه في جنب الله تعالى، فإنه يسلك سبيل التوبة ليتدارك بها ما سلف من تقصيره، والتوبة أول المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واستصحبه معه ونزل به، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك، وقوله تعالى:{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} آية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة لعل المشعرة بالترجي، إيذانًا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون[1].

أنواع التوبة:

تدور التوبة بحسب درجة التائب على نوعين، فقد سُئل الحسين المغازلي عن التوبة. فقال: (تسألني عن توبة الإنابة؟ أو توبة الاستجابة؟) فقال السائل: ما توبة الإنابة؟، قال: (أن تخاف من الله من أجل قدرته عليك) قال: فما توبة الاستجابة؟ قال: (أن تستحى من الله لقربه منك)[2].

فالعابد بين أن يخاف من الله فرقا مما فعل، أو يستحي من الله سوء ما فعل. ولا شك أن الحياء من الله تعالى عند مقارفة الذنب أعظم من الخوف.

وقال أبو علي الدقاق: (تاب بعض المريدين ثم وقعت له فترة فكان يفكر وقتًا لو عاد إلى توبته كيف حكمه؟ فهتف به هاتف: يا فلان، أطعتنا فشكرناك، ثم تركتنا، فأهملناك، وإن عدت إلينا قبلناك).

عن أبي طويل شَطَب المِمْدُود أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أرأيت من عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئًا وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها، فهل لذلك من توبة؟ قال: «فهل أسلمت؟» قال: أما أنا

1() مدارج السالكين (1/ 196).

2() التعرف لمذهب أهل التصوف (ص: 93).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

فأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، قال: «تفعل الخيرات وتترك السيئات فيجعلهن الله لك خيرات كلهن» قال: وغدراتي وفجراتي؟ قال: «نعم» قال: الله أكبر فما زال يكبر حتى توارى.[رواه البزار والطبراني واللفظ له وإسناده جيد قوي].

التوبة شرائط وآداب

للتوبة شرائط لا بد لها، قال الجنيد: (التوبة على ثلاثة معان: أولها: الندم. والثاني: العزم على ترك المعاودة إلى ما نهى الله عنه. والثالث: السعي في أداء المظالم)[1].

فالندم مطلوب لها؛ لأنه لا توبة لمن لم يستشعر في نفسه قبح ما فعل، ولا توبة لمن يرى المعصية التي فعلها لا تأثير لها في حدوث حالة من التأنيب تكون مصاحبة لها أو بعدها، فالذي يتوب من ظلم إنسان وكان إذا ذكر ظلمه ضحك واستبشر ولم يشعر بأسف من سابق ظلمه ليس من أهل التوبة الحقيقين.

كما لا يمكننا أن نتخيل رجلا مارس الزنا –عياذًا بالله تعالى– وأراد التوبة منه وكلما ذكر ذلك تاقت نفسه لما سلف منه، وتمنى أن يعود لمثله مرة أخرى.

الثاني: العزم على ألا يعود، فإن من تاب وفي نيته أنه يعود لما سبق فعله فكأنه هازل في توبته؛ لأن التوبة في أصل معناها الرجوع، وكيف تصح له توبة وهو لا يزال على طريق المعصية لم تخرج من ضميره ولا تزال نفسه معلقة بها.

الثالث: رد المظالم، وهذه تختص بمظالم الناس وأموالهم وأعراضهم، فمن جنى على ميراث شقيق أو شقيقة، أو جنى على جار أو زميل أو موظف، فعليه أن يستبرئ منه قبل أن يفوته ذلك.

ولهذا الأمر احتراز بالغ، فإنه لو أدى لفساد أشنع من ذات المظلمة، كأن يكون سرق مالًا لقريب لو صارحه لصارت بينهما مقتلة أو هجرا طول الدهر، فعليه أن يقدر الأمور بقدرها، وأن يتحايل في إعادة ما في ذمته قدر المستطاع وبكل الوسائل، ومن اغتاب شخصًا وأراد أن يستعفيه ويتحلل منه، فلينظر لمآل فعله، لأنه ليس من مقاصد الشريعة فعل قبيح تكون التوبة تؤدي لما هو أقبح وأشنع، ومثل هذا يستغفر، ويدعو لمن كان شأنه معه كذلك

التوبة من قريب

من أهم ما يلزم في التوبة سرعة الأوبة، فإذا وقع الذنب بادر صاحبه على الفور بالتوبة منه، قال الله تعالى:{إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}[النساء: 17].

وقد قال لقمان لابنه: (يا بني لا تؤخر التوبة؛ فإن الموت يأتي بغتة).

ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف، فإما تراكمت الظلمة على قلبه من المعاصي حتى تصير الظلمة رينا وطبعا فلا يقبل المحو، وإما أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو.

وفي الحديث النبوي ما يرشد لمسألة المسارعة، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر: «اتق الله حيثما

1() الرسالة القشيرية (1/ 211).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[أخرجه الترمذي، وصححه].

والتوبة من قريب والمحاسبة الدائمة للنفس علامة على صحة القلب، وعلامة على كونه حيًّا لا يزال محبًّا لله خائفًا من جلالة وعظمته، فمن لا يخاف الله ولا يحبه، وقلبه قاس فإنه لا يجزع من ذنبه، ولا يبادر بالتوبة منه ولا محاسبة نفسه على شيء من تقصيرها.

أكاديمية آيات
Ayaat Academy

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

المحاضرة الثالثة

ترك الإصرار على المعاصي

Ayaat Academy

المحاضرة الثالثة

ترك الإصرار على المعاصي

1. تعريف الإصرار وعلاماته.
2. التحذير الشرعي من المعصية، وخطر الإصرار عليها.
3. المعاصي والإيمان علاقة التنافر بينهما.
4. متى تصير معصية في حكم من يصر عليها.
5. المجاهرة بالمعصية وخطورتها.
6. أثر المعصية على النفس والمجتمع.
7. طرق التخلص من الإصرار على المعاصي.

الإصرار على المعصية ضرب من ضروب عدم الاستقامة، وسبيل مخل بالسير على طريق الله تعالى، وإنما يهذب المرء سلوكه بالإقلاع عن المعاصي.

وكما أن من علامات صحة القلب ديمومة العمل الصالح، فإن من علامات موته الإصرار على المعصية.

تعريف الإصرار

الإصرار لغة من: (صرر)، والإصرار التعقد في الذنب والتشدد فيه والامتناع من الإقلاع عنه وأصله من الصر أي الشد، والصرة ما تعقد فيه الدراهم.

أصر على الشيء يصر إصرارًا إذا لزمه وداومه وثبت عليه. وأكثر ما يستعمل في الشر والذنوب[1].

والإصرار: هو العزم بالقلب على الأمر وترك الإقلاع عنه[2].

وقيل: الإصرار هو: التعقد في الذنب والتشديد فيه، والامتناع عن الإقلاع عنه والدوام والملازمة، وكل عقد شددت عليه[3].

وقيل: الإصرار اعتزام البقاء على الذنب[4].

التحذير من المعصية، والإصرار عليها

جاءت الشريعة بنصوصها تحذر من المعصية وتحذر من خطورة الإقدام عليها، ونلاحظ أنها في ذلك سلكت مسالك

1() المفردات في غريب القرآن (ص: 279)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (3/ 22).

2() الجامع لأحكام القرآن (4/ 211).

3() التعاريف (ص: 68).

4() المحرر الوجيز (1/ 538).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

شتى، فتارة تحذر منها، وتارة تعلي شأن من امتنع عنها ولم يقدم عليها تعففا ورغبا ورهبة من الله تعالى، أو بادر بالتوبة منها.

وقد جعل الله المعصية ظلمًا قال الله تعالى:{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}[البقرة: 35].

ثم حذر القرآن من سبيل المعصية وسلوك طريقها فقال سبحانه:{وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ}[الأنعام: 151].

وفي صفات عباد الرحمن يقول تعالى:{وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ}[الفرقان: 68].

ويثني على نبي الله يوسف في تعففه وصبره، فيقول بعد أن مكن له في أرض مصر:{وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}[يوسف: 56، 57].

مكَّن الله لنبيه يوسف عليه السلام في الحياة –بعد أن كان مسترقا في قصر العزيز يباع ويشترى– فصار هو صاحب الكلمة في توزيع الحاجات، ثم لفت النظر إلى أن هذا لا شيء بجانب ما هو أعظم في الآخرة.

وأثنى الله تعالى على من تاب بقرب ما فعل فقال :{إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[النساء: 17].

خطورة الإصرار على المعصية

الإصرار: هو الاستقرار على المخالفة، والعزم على المعاودة، وذلك ذنب آخر، لعله أعظم من الذنب الأول بكثير، وهذا من عقوبة الذنب أنه يوجب ذنبًا أكبر منه، ثم الثاني كذلك، ثم الثالث كذلك، حتى يستحكم الهلاك، والإصرار على المعصية معصية أخرى، والقعود عن تدارك الفارط من المعصية إصرار ورضا بها، وطمأنينة إليها، وذلك علامة الهلاك، وقد وصفَ اللهُ أهلَ النارِ بالإصرارِ على الكبائرِ، فقال:{وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ}[الواقعة: 46].

وأخرت الآيات القرآنية عن صفات المؤمنين، وأنه تكون في سرعة الإياب وعدم الإصرار، قال الله تعالى فيهم:{وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[آل عمران: 135].

وأخبرت عن جلد الكافرين في باطلهم وإصرارهم عليه، وتواصيهم بالدعوة إليه، وأمانيهم في الخلق بأن يكون الجميع في الكفر سواء، قال الله تعالى:{وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ}[ص: 6]، وقال سبحانه في أمانيهم الناشئة من إصرارهم على كفرهم:{وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً}[النساء:89].

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال وهو على المنبر: «ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر الله لكم، ويل لأقماع القول، ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون»[أخرجه أحمد (165/2)، وهو حسن].

وأقبح مظاهر الإصرار هو إصرار إبليس، فإنه كان، ولا يزال، وسيظل على إبائه واستكباره إلى أن يرث الله الأرض

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

ومن عليها، فذنبه أطول الذنوب، وأقبحها، وبسببه لُعن وصار رجيمًا، فمنذ أمره الله بالسجود إلى أن يأذن الله تعالى بزوال الدنيا يظل على كفره وإباءه لا يتحول عنه.

مظاهر الإصرار على المعصية

من مظاهر الإصرار على المعصية المجاهرة بها.

فالمجاهرة تعني اختفاء حالة الخوف والحب التي يتوجب على المرء التفيء بهما بالغداة والعشي، بأن يكون مع ربه محبًا خائفًا، والمجاهرة بالمعصية تحول بين العاصي وبين المغفرة، ففي الحديث عن أبي هريرة يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين...»[متفق عليه، البخاري برقم (6069)، ومسلم برقم (2990)].

ومن مظاهر الإصرار الفرح بالمعصية

قال ابن القيم: (الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها، والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها، ففرحه بها غطى عليه ذلك كله، وفرحه بها أشد ضررا عليه من مواقعتها، والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدا، ولا يكمل بها فرحه، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به، ومتى خلى قلبه من هذا الحزن، واشتدت غبطته وسروره فليتهم إيمانه، وليبكِ على موت قلبه)[1].

ومن مظاهر الإصرار عليها تمني أن تكون المعصية في كل الناس

إن صاحب القلب السليم لا يحب لغيره من الناس أن يقترف ما اقترف، ولا أن يتجرأ كما تجرأ، وفي كتاب الله المجيد حكاية عن العصاة الكافرين :{وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً}[النساء: 89].

ولولا إصراره على ما هو فيه ما تمناه لغيره من الناس، ومن نظر في ذنب إبليس علم هذا الملحظ، فإنه يتمنى كفر الخلق أجمعين، ولذلك لما ركبه طبعه من شدة الإصرار على الذنب الذي لعنه الله به.

الأسباب النفسية لنشأة الذنوب

أرجع العلماء الذنوب لطبيعة نفسية تتغلب على العاصي.

فحصرها الغزالي في أربعة، وهي صفات ربوبية، وصفات شيطانية، وصفات بهيمية، وصفات سبعية[2]، وعبر عنها ابن القيم بقوله: (مَلَكيّة، وشيطانية، وسبعيه، وبهيمية)[3].

فالقسم الأول منها هو صفات الربوبية أو الملكية هو: أن يتعاطى ما لا يصلح له من صفات الربوبية كالعظمة، والكبرياء، والجبروت، والقهر، والعلوّ، واستعباد الخلق، ونحو ذلك .كأنه يريد أن يقول: أنا ربكم الأعلى[4].

الثانية: الصفات الشيطانية؛ يتشعب منها الحسد والبغي والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمكر وفيه يدخل الغش

1() مدارج السالكين (1/ 198).

2() إحياء علوم الدين (4/ 16).

3() الداء والدواء (1/ 287).

4() الداء والدواء (1/ 287).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

والنفاق والدعوة إلى البدع والضلال.

الثالثة: الصفات البهيمية، ومنها يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللوط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات.

الرابعة: الصفات السبعية؛ ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال[1].

أثر المعصية على النفس والمجتمع

إن المعصية إذا شاعت وتواطأ عليها الفاعلون، ولم يقلعوا عنها حلت بهم العقوبة العاجلة وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله، وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»[أخرجه ابن ماجه، وهو حديث حسن].

يقول ابن القيم في ضرر الذنوب: (ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي، فما الذي أخرج الأبوين من الجنة، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟ وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبدل بالقرب بعدا، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحا، وبالجنة نارا تلظى، وبالإيمان كفرا، وبموالاة الولي الحميد أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان، فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينه غاية السقوط، وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه)[2].

أقبح أنواع الإصرار

لا يزال في البشر النوع الأسوأ في خلقهم يمثل النموذج الأتم في مسألة الإصرار، ألا وهو إبليس لعنه الله تعالى، فإنه منذ أمره الله بالسجود إلى أن يأذن الله تعالى بزوال الدنيا يظل على كفره وإباءه لا يتحول عنه.

طرق التخلص من الإصرار على المعاصي

الإقلاع عن المعاصي يحتاج للنفس اللوامة التي تلوم صاحبها في الغدو والآصال، فالعلاقة بين القلب والإقلاع علاقة

1() إحياء علوم الدين (4/ 16).

2() الداء والدواء (ص: 42).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

مطردة، فالمعصية تميت القلب، والإقلاع عنها يحتاج لقلب فيه حياة، فإذا لا يدور المرء في حلقة مفرغة، ولكن يمكن للمرء التالي:

أولا: الدعاء، فإنه الحصن الحصين للحيلولة دون المعصية، وخير عون على تلافي آثارها، وهو العون على الإقلاع عنها وتركها.

ثانيا: تأديب النفس باستمرار، وتعاهدها، وحسابها ومراجعة أمور اليوم بصفة مستمرة.

ثالثا: الورد القرآني، فمن كان له مع كلام الله علاقة ممتدة لا تنقطع فإن ذلك معين له من ناحيتين:

ناحية الحياء الذي تولده العلاقة بالقرآن المجيد، الثاني: أن الحسنة تذهب السيئة، وتدفع للمزيد من الحسنات.

رابعا: البعد عن رفاق السوء إذا امتدت علاقة المرء بالمعصية ن فإن رفيق السوء لا يُعين على معروف أبدا، وفي قصة التائب القاتل أوصاه العالم أن يخرج من أرض السوء، وإنما ذلك لأن رفاق السوء لهم نظرات وكلمات قاتلة لصاحب التوبة، فضلا عن تذكير الواقع المحيط بسالف الدهر.

خامسا: المحافظة على الصلاة وعدم التراخي عن وقتها، وفعلها بلهفة وشوق.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

منهج

التزكية

المحاضرة الرابعة

الإخلاص

أكاديمية آيات
Ayaat Academy

المحاضرة الرابعة: الإخلاص

في نهاية الدرس يستطيع الطالب أن

1- يعرَّف الإخلاص.
2- ينتبه بضرورة الإخلاص لصحة العمل.
3- يتعرف على أثر الإخلاص على نفس صاحبه.
4- ينتبه بواقع المخلصين وعجائبهم مع الإخلاص وتحريه.
5- يستطيع أن يورد الآثار الواردة في الإخلاص.

الإخلاص أحد مقامات الدين المهمة، وهو مطلوب في العمل، ولا يصح العمل بغيره، ولا يصح للمسلم أن يسير إلى الله تعالى دون أن يستصحب الإخلاص، وفي البداية يجب أن نعرف به:

تعريف الإخلاص:

الإخلاص لغة: مأخوذ من مادة (خ.ل.ص) التي تدل على تنقية الشيء وتهذيبه، يقال: خلص الماء من الكدر صفا، و المخلص: الذي أخلصه الله جعله مختارا خالصا من الدنس، وهو ترك الرياء في الطاعات[1] .

الإخلاص اصطلاحا: تخليص القلب عن شائبة الشوب المكدر لصفائه.

ضرورة الإخلاص لصحة العمل

الإخلاص بالنسبة للعمل كالفريضة اللازمة، والشرط المحتم، والركن الآكد، وإذا خلا عنه العمل فلا قيمة للعمل بدونه.

وجاءت آيات القرآن تحث عليه على صور شتى، فمن ذلك:

1- قوله تعالى:{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ}[البينة: 5].
2- وقوله تعالى: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83)}[ص: 82، 83].
3- وقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}[الأنعام: 162، 163].
4- قوله تعالى: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}[يوسف: 24].

والآيات في هذا نصًّا أو إشارة كثيرة في كتاب الله تعالى.

وفي أقول النبي صلى الله عليه وسلم تنبيهات شتى على الإخلاص وفضله وضرورته.

فمن ذلك أن العمل لا يقبل إلا إذا صاحبته النية الخالصة، ففي الحديث:

1() المصباح المنير (1/ 177)، ولسان العرب (7/ 26)، والتعريفات (ص: 13).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

1- عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[متفق عليه].

وعنه صلى الله عليه وسلم: «ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن: إخلاص العمل لله، والنصيحة لولاة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم، تحيط من ورائهم»[أخرجه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وقال الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي].

ومعنى ذلك: أن هذه الخصال الثلاث مما يستصلح بها القلوب فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والحقد وغيرهما من الرذائل[1].

والأحاديث في هذا كثيرة، بعضها تنبه على أنه لا اعتبار إلا به، وبعضها تبين جزاء أهله، وبعضها تحذر من عدم تصديره في أول الفعل وآخره.

الإخلاص في تعبيرات العلماء عنه

لما كان الإخلاص ضرورة لازمة وفريضة محتمة، فقد سئل العلماء عن حقيقته، وتنوعت عباراتهم في التعبير عنه، ومع تنوع العبارة فإنها تعود إلى قصد واحد وهو تصفية الأعمال وجعلها له تعالى وحده، فقيل:

الإخلاص: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

وقيل: أن تكون جميع الحركات والسكنات والقيام والقعود والتقلّبات والأفعال والأقوال لله تعالى[2].

وقيل: التبري عن كل ما دون الله تعالى[3].

وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن.

وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق. ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

ومن كلام الفضيل: (ترك العمل من أجل الناس: رياء. والعمل من أجل الناس: شرك. والإخلاص: أن يعافيك الله منهما)، قال ابن القيم: (العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملا ينقله ولا ينفعه)[4].

أثر الإخلاص في نفس صاحبه

للإخلاص آثار جمة تنعكس على أصحابه، فإن قوة النفس ووضوح الشخصية إنما ينشأ من إخلاص العمل لله تعالى، والذين لا يراعون الإخلاص في أعمالهم تجد لهم في نفوس الناس جفوة، وأرواحهم منهم نافرة، ولذا قال مطرف بن

1() شرح سنن ابن ماجه للسيوطي (ص:21).

2() كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (1/ 122).

3() المفردات في غريب القرآن (ص: 155).

4() الفوائد لابن القيم (ص: 49).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

عبد الله: (من صفا صفي له، ومن خلط خلط عليه).

وقال الجنيد: (إن لله عبادًا عقلوا، فلما عقلوا، عملوا فلما عملوا أخلصوا، فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع)[1] .

فالإخلاص باب الوصول لعمل الصالحات، وباب الدخول إلى الطاعات.

وفي قوله تعالى: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}[يوسف: 24] فيها قراءتان، بكسر اللام، وفتحها، أما كسرها فتكون اسم فاعل، ويكون المراد أن يوسف عليه السلام قد أتى بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص[2].

إن الإخلاص أحد صوارف السوء عن المرء، ومعين له حين تغريه الفاحشة بزخرفها على أن يستعيذ بالله منها، فإن المرء قد يتحاشى المعصية ابتداء، لكنها حين تصادفه في طريقه، أو تتهيأ له أسبابها دون إرادة منه، فإنه قد يضعف حينئذ، وصاحب النفس المستقيمة، لا تروغ منه نفسه في مثل هذه المواقف، ويبادر بالانتصار على شهوات النفس وضعفها أمام المغريات.

وإننا لنلحظ هذا في سلوك من تتأبى نفوسهم عن أن يختلوا بمعصية، أو يغادروا مواطنها حين لا يكون مناص من تغييرها، وهذا استقامة في النفس والقلب ولدها إخلاص العمل لله تعالى.

وما الخوف من الله في الغيب ومراعاته إلا نواتج الإخلاص، وما كانت هدايات القرآن إلا لأصحاب الإخلاص، وهو عمل غيب لا يشهده أحد، وقد سبق قول: قال الجنيد: (الإخلاص سر بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله)[3]، وهذا السر هو المولد لخشية الله وعدم التوجه بالعمل مهما قلَّ لغيره تعالى.

قال ابن القيم: (جرت عادة الله التي لا تبدل وسنته التي لا تحول أن يلبس المخلص من المهابة والنور والمحبة في قلوب الخلق وإقبال قلوبهم إليه ما هو بحسب إخلاصه ونيته ومعاملته لربه).

من عجائب المخلصين

كان الصالحون قديما من أحرص الناس على رعاية الله تعلى، وكانوا يستخفون بأعمال البر، حتى كان أقرب الناس منهم لا يعرفون بهم، فقد قالوا: أقام عمرو بن قيس الملائي عشرين سنة صائما، ما يعلم به أهله يأخذ غداءه ويغدو إلى الحانوت فيتصدق بغذائه ويصوم وأهله لا يدرون.

وفي ترجمة علي زين العابدين قيل: كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به بالليل، ولما مات وغسلوه جعلوا ينظرون إلى آثار سود في ظهره، فقالوا ما هذا؟

1() إحياء علوم الدين (4/ 378-379).

2() تفسير الرازي (18/ 441).

3() الرسالة القشيرية (2/ 361).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

فقالوا كان يحمل جرب الدقيق ليلًا على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة[1].

وكان عبد الله بن المبارك يخدمه شاب من شاب البلد، فذهب ابن المبارك للجهاد، ولما أتى لم يجد الشاب، فسأل عنه فقيل له محبوس في دين، فسأل عن صاحب الدين وسأله عن دين الشاب، فقال عشرة آلاف درهم، فأعطاها له وقال لا تخبر أحدًا وأخرجه من حبسه، فأخرجه من الحبس، فلما خرج قيل للشاب: كان ابن المبارك هنا وكان يسأل عنك فأخذ يتبعه الشاب حتى لحق به، فقال له ابن المبارك أين كنت أيها الشاب؟ فقال: كنت محبوسًا في دين. قال فكيف تخلصت منه، فقال: جاء رجل هاهنا فدفع الدين، فقال له ابن المبارك: أحمد الله على ما وفق لك من قضاء دينك[2]، فرغم أن ابن المبارك هو الذي قضى دينه إلا أنه تجاهل ذلك، وأوهم المدين أنه ما كان يعرف بحبسه دون أن يكذب، والذي أخبر بذلك أخبر به بعد وفاة ابن المبارك رحمه الله.

كي أكون مخلصًا

سؤال يمور بالنفس حين يقرأ صاحبها عن أهمية الإخلاص أو آثاره أو ضرورته للعمل، كيف أكون مخلصًا وكيف أنا درجة المخلصين ؟ وأنزل منزلتهم ؟ أو ألتحق بركبهم.

إن أهم ما يجلب الإخلاص هو حرص المرء على الأعمال التي لا يراها الناس ولا يطلعون عليها، فمن ذلك:

1- الحرص على صيام النافلة، فإن الصيام أحد مهذبات السلوك والنفوس أيضا، وفيه قال الله تعالى: «كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل إني امرؤ صائم»[متفق عليه]، فأمر الصيام مخفي عن المخلوقين ولا يطلع عليه إلا الرب – جل جلاله– فيعلمه حقيقة ويجازي عليه؛ لأن الحفظة ترى مسكًا عن الطعام، فالنية فيه إلى الله تعالى وبها يصير صائما[3].

2- التهجد بالليل، فهو عمل لا يطلع عليه أحد، وقد كان في أول الإسلام مفروضا لتشتد به جماعة المؤمنين، وليثبتوا على الصف لا يتحولون، وقد أوصى الله نبيه به فقال سبحانه: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا}[الإسراء: 79].

3- الدعاء بأن يرزق المرء الإخلاص، فالدعاء سلاح المؤمن، وهو معين له على بلوغ الأماني والحاجات.

4- اتخاذ عمل راتب لا يتركه المرء أبدا، فإن العمل الذي يدوم عليه صاحبه وإن قلَّ معين له على الإخلاص بل ودليل منه عليه.

1() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 136-135).

2() صفة الصفوة (4/ 142).

3() التوضيح لشرح الجامع الصحيح (28/ 166).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

منهج

التزكية

المحاضرة الخامسة

الحذر من الرياء

Ayat Academy

المحاضرة الخامسة: الحذر من الرياء

في نهاية الدرس يستطيع الطالب أن

1. يعرف الرياء، وينتبه بخطورته على العمل.
2. يذكر من القرآن والسنة الأدلة على التحذير منه.
3. يقارن بين الاستعلان بالعمل والاستخفاء به وعلاقة ذلك بالرياء.
4. ينتبه بمسألة الفرح بالطاعة.
5. يتعرف كيف ما الذي يسلكه ليتخلص من الرياء.

الرياء مرض من أمراض النفس قد يحبط العمل، ولا بد من التعريف به أولًا قبل الكلام عليه:

تعريف الرياء:

الرياء لغة: من (رأى) الراء والهمزة والياء أصل يدل على نظر وإبصار بعين أو بصيرة[1].

الرياء اصطلاحًا: ترك الإخلاص في العمل بمراعاة غير الله فيه[2].

قال الغزالي: (الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادة وإظهارها، فحد الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله، فالمرائي هو العابد، والمراءى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم، والمراءَى به هو الخصال التي قصد المرائي إظهارها، والرياء هو قصده إظهار ذلك)[3].

وإذا كان الرياء فيه إظهار العبادة لأجل الناس، فإن المرء يسأل سؤالا مهمًا: هل كل ما أظهره المرء من العبادات عدَّ ذلك منه رياءً؟ وقبل أن نجيب على ذلك أذكر أقسام الرياء:

خطورة الرياء

جاءت الشريعة تحذر من الرياء وانتهاجه

قال الله تعالى:

1- {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}[الكهف: 110].

2- {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ }[البقرة: 264].

1() مقاييس اللغة (2/ 472).

2() التعريفات (ص: 113).

3() إحياء علوم الدين (3/ 297).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

وفي السنة

3- عن شداد بن أوس -رضي الله عنه- قال: إني قد سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «من صلى يرائي فقد أشرك ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك..»[أحمد في المسند].

4- عن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- أن رجلا أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله»[متفق عليه].

والآيات في هذا والأحاديث كثيرة

أقسام الرياء

الرياء بالعبادة له عدة أقسام بعضها أغلظ وأفحش من بعض.

1- الرياء بالأصول كأن يرائي بأصل الإيمان، وهذا أغلظ أبواب الرياء، وصاحبه مخلد في النار، وهو الذي يظهر كلمتي الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب ؛ولكنه يرائي بظاهر الإسلام.

2- الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها، كأن يرائي بفعلٍ ما، في تركه نقصان العبادة كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة ،فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود، قال ابن مسعود: (من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه عز وجل). أي: أنه ليس يبالي باطلاع الله عليه في الخلوة فإذا اطلع عليه آدمي أحسن الصلاة.

3- أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضا ،كحضوره الجماعة قبل القوم، وقصده للصف الأول وتوجهه إلى يمين الإمام وما يجري مجراه... وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالي أين وقف ومتى يحرم بالصلاة.

فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرائي به وبعضه أشد من بعض والكل مذموم[1].

الاستعلان بالعمل هل يدخل في الرياء؟

العمل الذي شرعته الشريعة بعضه يمكن سرًّا وجهرا، وبعضه لا يمكن الإسرار به، قال ابن حجر الهيتمي: (إن في كتم العمل فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفي إظهاره فائدة الاقتداء وترغيب الناس في الخير، ولكن فيه آفة الرياء، وقد أثنى الله على القسمين فقال -عز قائلا-: {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ }[البقرة: 271] لكنه مدح الإسرار لسلامته من تلك الآفة العظيمة التي قل من يسلم منها.

وقد يمدح الإظهار فيما يتعذر الإسرار فيه كالغزو والحج والجمعة والجماعة، فالإظهار المبادرة إليه، وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شائبة رياء.

1() إحياء علوم الدين (3/ 302 - 204) باختصار.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

ومتى خلص العمل من الشوائب، ولم يكن في إظهاره إيذاء لأحد، فإن كان فيه حمل للناس على الاقتداء والتأسي به في فعله ذلك الخير والمبادرة إليه؛ فالإظهار أفضل.. وإن اختل شرط من ذلك فالإسرار أفضل.

وكثيرون ربما يتركون الطاعات خوف الرياء، وليس ذلك بمحمود مطلقا، فإن الأعمال إما لازمة للبدن لا تتعلق بالغير ولا لذة في عينها كالصلاة والصوم والحج، فإن كان باعث الابتداء فيها رؤية الناس وحدها فهذا محض معصية فيجب تركه ولا رخصة فيها على هذه الكيفية، وإن كان الباعث نية التقرب إلى الله تعالى؛ لكن عرض الرياء عند عقدها شرع فيها وجاهد نفسه في دفع ذلك العارض)[1].

الفرح بالطاعة هل يدخل في الرياء؟

لا بد أن نفرق بين أمرين:

الأول: الفرح بالعمل على سبيل الغرور والزهو به

والغرور بالعمل واستعظامه والمن به على المعبود سبحانه وتعالى، من خلل الباطن، وصاحبه على خطر عظيم، فإنه ما من نعمة أو من توفيق في طاعة إلا ولله تعالى فيها المنة والفضل، ولا يمكن للإنسان عباده إلا بتوفيق الله تعالى وهدايته ورعايته، فكيف يغتر المرء بما هو في الأصل نعمة وتوفيق من الله له.

الثاني: الفرح بالعمل على غير العجب والزهو به، وهذا لا شيء فيه والله تعالى يقول: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}[يونس: 58]، وعن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»[أخرجه مسلم]، فثناء الناس وفرح المرء لا يضر العمل أبدًا ما دامت النية الباعثة هي وجه الله تعالى.

وهل يحرم على المرء أن يفرح بالحج؟ أو تمام الصوم ؟ وفي الحديث: قال صلى الله عليه وسلم: «للصائم فرحتان يفرحهما، إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه»[متفق عليه]، قال ابن حجر: فرحه بفطره إنما هو من حيث إنه تمام صومه وخاتمة عبادته وتخفيف من ربه ومعونة على مستقبل صومه[2].

أثر الرياء في حبوط العمل

العمل الذي يدخله الرياء على أقسام:

1) أن يكون رياء محضا، بحيث لا يراد به سوى مراءات المخلوقين، وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

2) أن يكون العمل لله، ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه وحبوطه.

1() الزواجر عن اقتراف الكبائر (1/ 77).

2() فتح الباري لابن حجر (4/ 118).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

3) إن كان أصل العمل لله، ثم طرأت عليه نية الرياء، فإن كان خاطرا ودفعه، فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه، فهل يحبط به عمله أم لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى[1].

علاقة الرياء بأمراض النفس

الرياء هو الثوب الذي يشف عما بداخل صاحبه، فلا يتدثر به إنسان إلا بان ما في نفسه.

كثير من الناس يعانون من جفوة وهموم لازمة لا تفارقهم، إنهم لا يعرفون أن سببها هو الصلة التي بينهم وبين خالقهم قد دخلها الرياء، فمنع حلاوة الإيمان من قلوبهم، فهو داء قد يفسد العمل أحيانًا، ويخلع الإيمان من القلب خلعا.

لماذا لا تفارقني الهموم؟ لماذا لا أبتسم من القلب ككل الناس؟ لماذا حين أغيب لا يفتقدني أحد؟ لماذا يتمتع بعض الناس بقبول أفضل مني رغم ما أفوقهم في أمور الدين والدنيا؟

أسئلة موارة لا تفارق المرائي، لكنه صاحب نفس لا تزال نابضة، وإلا فمن سره ريائه ولم ينزعج منه ولم يجد له وحشة فهو صاحب قلب صار ميتًا وصار بحاجة لعودة الحياة إليه من جديد.

كيف أتخلص من الرياء؟

الرياء مرض نفسي، يحتاج إلى مداوة دائمة، ويحتاج مع ذلك للتالي:

1- دوام محاسبة النفس.
2- الإكثار –ما أمكن– من عبادات السر.
3- الاستعاذة الدائمة بالله تعالى منه.
4- صحبة الصالحين والحرص عليها، والبعد عن البطالين وأرباب السوء.
5- اتخاذ عمل يسر به صاحبه ويدوم عليه ولا يقطعه.

أخيرا:

الدعاء الدائم بأن يرزق المرء الإخلاص، ويحال بينه وبين الرياء.

1() جامع العلوم والحكم (1/ 79).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

منهج

التزكية

المحاضرة السادسة

الحياء

أكاديمية آيات
Ayaat Academy

المحاضرة السادسة: الحياء

من محاسن الإسلام أنه دعا المؤمنين به إلى مكارم الأخلاق، وحثهم على التخلق بالجميل والفاضل منها، وليس هناك خلق حسن إلا وقد دعا إليه وأجزل الثواب على من يتعاطاه ويتخلق به.

ونلاحظ أن الأخلاق هذه تسهم إسهامًا كبيرًا في تزكية النفس، وتطهيرها وإكسابها الفضائل، وهذه الأخلاق بعضها مانع من المعصية، وبعضها دافع للطاعة، وبعضها مانع من المعصية في مواضع، وحاث على الطاعة أحيانًا، كما نلاحظ أن الأخلاق في الإسلام بعضها أمهات للفضائل، وبعضها مفردات وجزئيات لها.

حين نلاحظ الحياء، فإننا نجده من الأخلاق الدافعة المانعة، فهو من دوافع الطاعة حين يأتي وقتها، فصاحب الحياء يستحي من ألا يجيب ربه تعالى إذا دعاه لطاعة، وهو مانع وحائل حين تمور بالنفس نزغات الشيطان ويرى نفسه في مرمى المعصية قد تهيأت له أسبابها.

في طريق تزكية النفس والتغلب على تقلباتها ونزغاتها لا بد أن يمر صاحبها بالحياء، ويأخذ بحظ كبير منه ومن آثاره على النفس، من هنا كان لا بد من التعريف به.

تعريف الحياء وفضله

الحياء لغة: مأخوذة من (ح.ي.ي) الحياء: التوبة والحشمة، والاستحياء ضد الوقاحة[1].

الحياء اصطلاحا: انكسار وتغيّر يعتري الإنسان من تخوّف ما يعاب به أو يذمّ، وقيل: انقباض النفس من شيء حذرا من الملام.

وهو نوعان: نفساني؛ وهو الذي خلقه الله تعالى في النفوس، كلها كالحياء من كشف العورة، والجماع بين الناس، وإيماني؛ وهو أن يمنع المؤمن من فعل المعاصي خوفًا من الله تعالى[2].

الحياء في الشريعة

جاءت الشريعة تحث على الحياء وتأمر به وترفع شأن المتخلقين به، فذكرت قدوم بنت شعيب عليه السلام لسيدنا موسى عليه السلام، ووصف قدومها بأنه كان على استحياء، وذكر القرآن أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصاب بالحياء من أصحابه في بعض التصرفات، فجاءت الآيات تقول: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ}[الأحزاب: 53].

وجاءت السنة ترفع شأن الحياء

1- عن سعيد بن زيد الأنصاري- رضي الله عنه- قال: إن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال:

1() مقاييس اللغة (2/ 122)، ولسان العرب (14/ 217).

2() التعريفات (ص: 94)، والتعاريف (ص: 150).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

«أوصيك بتقوى الله، وأن تستحي من الله كما تستحي رجلا صالحا من قومك»[الزهد، للإمام أحمد، وشعب الإيمان، للبيهقي].

2- عن أبي أيوب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أربع من سنن المرسلين: الحياء، والتعطر، والسواك، والنكاح»[سنن الترمذي].

3- عن ابن عباس، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال للأشج العصري: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم، والحياء»[سنن ابن ماجه].

4- عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»[متفق عليه]

ممن يكون الحياء؟

الاستحياء يكون من الله تعالى، ويكون الحياء من انتهاك حرماته والتجروء على معاصيه، وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم: «استحيوا من الله حق الحياء». قال: قلنا: يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله، قال: «ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»[سنن الترمذي، برقم (2458)].

قال بعضهم: استحي من الله على قدر قربه منك، وخف الله على قدر قدرته عليك، وقال بعض العارفين: إذا تكلمت، فاذكر سمع الله لك، وإذا سكت، فاذكر نظره إليك[1] .

وعن سلمان الفارسي قال: (إن الله إذا أراد بعبد هلاكا، نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء، لم تلقه إلا مقيتًا ممقتا).

وعن ابن عباس قال: (الحياء والإيمان في قرن، فإذا نزع الحياء، تبعه الآخر). قال ابن رجب: (من لم يكن له حياء، انهمك في كل فحشاء ومنكر، وما يمتنع من مثله من له حياء)[2].

الفرق بين الحياء والخجل

الخجل يعتري الإنسان بأن يبقى باهتا لا يتحدث، وقيل: الخجل أن يلتبس على الرجل أمره فلا يدري كيف المخرج منه[3]، فالخجل كأنه باب من أبواب البهت الذي يلحق من وضع نفسه في موضع المناظرة، أو غير ما يحق من الأمور، بخلاف الحياء، فقد قيل: الخجل الاسترخاء من الحياء، ويكون من الذل[4].

1() جامع العلوم والحكم (1/ 290).

2() المرجع السابق.

3() مقاييس اللغة (2/ 247)، و النهاية في غريب الحديث والأثر (2/ 12).

4() تهذيب اللغة (7/ 29).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

والحياءُ ضد الوقاحة هو من الامتلاء بالغضاضة والطراءة والحس المرهف المتمثل في سرعة التأثر. والعامة تصف الحيِيّ بأنه عنده دم، وأنه حسّاس[1]، وقد يستعمل الحياء موضع الخجل توسعا[2].

لماذا خص النبي صلى الله عليه وسلم الحياء في شعب الإيمان بالذكر؟

لقد خُصَّ الحياء بالذكر من بين الشعب؛ لأنه كالداعي إلى باقي الشعب، إذ الحيُّ يخاف فضيحة الدنيا والآخرة فيأتمر وينزجر.

وإن قيل: الحياء من الغرائز، فكيف جُعل شعبة من الإيمان؟

أجيب بأنه قد يكون غريزة وقد يكون تخلقًا؛ ولكن استعماله على وفق الشرع يحتاج إلى اكتساب وعلم ونية، فهو من الإيمان لهذا؛ ولكونه باعثًا على فعل الطاعة وحاجزا عن فعل المعصية، ولا يقال رب حياء يمنع عن قول الحق أو فعل الخير لأن ذاك ليس شرعيا[3].

الحياء كقيمة إسلامية خالصة

إن الحياء يمنع صاحبه من ارتكاب النقائص والقبائح والمنكرات، ويدفع المرء إلى التحلي بكل جميل محبوب، ولذا كان الحياء خلقًا إسلاميًا عامًا يطلبه الإسلام في أتباعه[4].

والذي يقضي على الحياء ويذهب به من نفس المرء هو الذنوب، فهي تضعف الحياء من العبد، حتى ربما انسلخ منه بالكلية، وربما لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعل، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء، وإذا وصل العبد إلى هذه الحالة لم يبق في صلاحه مطمع[5].

إن خلق الحياء تقرُّهُ الفِطَر المستقيمة، وتدعو إليه العقول السليمة؛ لأنه يبعث على ترك الأمور القبيحة، والتحلّي بالصفات الجميلة[6].

وروت الأحاديث والآثار والقصص ما كان عليه صفوة خلق الله صلوات الله عليهم في هذا الخلق، وما كان عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم منه.

من قصص أصحاب الحياء

لقد جادت كتب الأحاديث والسير بقصص ومواقف أهل الحياء، وفي الذروة من هذا، ما كان من السيدة فاطمة رضي الله عنها، فلقد تملكها حزن تام بعد وفاة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما ألم بها المرض أخذت تفكر

1() المعجم الاشتقاقي المؤصل (1/ 359).

2() الفروق اللغوية (ص: 244).

3() فتح الباري لابن حجر (1/ 52).

4() نضرة النعيم (1/ 145).

5() الداء والدواء (ص: 69).

6(): https://www.alukah.net/sharia/0/129577/#ixzz6j5Ris8Ix

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

في حملها على نعش مكشوف بادية أمام الناظرين، فقالت ذلك للسيدة أسماء بنت عميس رضي الله عنها، قالت أسماء: (أصنع لك نعشا كما رأيت يصنع بأرض الحبشة، قالت: فأرنيه، قال: فأرسلت أسماء إلى جرائد رطبة، فقطعت من الأسواف وجعلت على السرير نعشا وهو أول ما كان النعش، فتبسمت فاطمة، وما رأيتها متبسمة بعد أبيها إلا يومئذ، ثم حملناها ودفناها ليلا)[الحاكم في المستدرك].

فانظر لهذا الحياء التام في موقف الذهاب للقبر، إذ لا ترضى رضي الله عنها أن يراها الرجال في كفنها، وتستحي وهي ذاهبة للدار الآخرة من أن يطلعوا عليها، فلما رأت النعش المغطى فُرّج عنها.

طرق اكتساب خلق الحياء

إن أهمية الحياء كونه شعبة من شعب الإيمان، مانعًا من المعاصي دافعًا للطاعات، كون صاحبه على خلة إيمانية عظيمة ليدعو الإنسان إلى أن يكون حييًا، فما دام الحياء بهذه المنزلة، خلق الأنبياء وخلق الصالحين المتأسين بهم، فكيف أكون حييا؟

إن طريق الحياء هو طريق كل خلة حسنة، يمر بطريق الاكتساب لو لم يكن فطرة في صاحبه، فالأخلاق منها ما هو مكتسب، ومنها ما هو فطري خلق صاحبه به، وفطر عليه فيكتسب الحياء بالتالي:

1- النظر في مآلات الحياء وفضل أصحابه.
2- أن يراقب المرء نفسه، ويطلع على ما يقوم به ويحاسب ذاته على ما تقوم به.
3- أن يلزم التقوى والمراقبة، فإن من اتقى الله تعالى وجعل التقوى غاية غلَّب الحياء على فعله ونفسه.
4- عدم التهاون في الحدود الشرعية كالاختلاط بين الجنسين، وديمومة الكلام مع غير المحارم.
5- أن يتذكر المرء قوله صلى الله عليه وسلم: «الحياء لا يأتي إلا بخير»[متفق عليه].

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

منهج

التزكية

المحاضرة السابعة

الورع

أكاديمية آيات
Ayaat Academy

المحاضرة السابعة: الورع

في نهاية هذا الدرس يكون الطالب قادرا على:

1- يعرف الورع ويذكر فضله.

2- يذكر من القرآن والسنة الأدلة على الورع.

3- ينتبه كيف يتحقق الورع.

4- يذكر بعضا من قصص أصحاب الورع.

5- يتعرف على بعض الجوانب التشريعية وكيف تسهم في تزكية الورع.

الورع هو ذاك الخلق العظيم الذي يُعدُّ من محاسن هذا الدين، والورع طريق الباحثين عن القلوب الطاهرة والنفس الباحثة عن التزكية، ولا تستقيم زكاة النفس إلا وصاحبها ممن يتورع عن المعاصي أن يواقعها، ويبتعد عن الشبهات أن يتخلق بها أو يجري خلفها، إن طريق الورع هو أقصر الطرق للبعد عن الحرام، والبعد عن ريب النفس وانغماسها في المآثم.

تعريف الورع وفضله

الورع لغة: (الواو والراء والعين) أصل يدل على الكف والانقباض. منه الورع: العفة، وهي الكف عما لا ينبغي[1]

الورع اصطلاحا: الاجتناب عن الشبهات سواء كان تحصيلا أو غير تحصيل؛ إذ قد يفعل المرء فعلا تورعا، وقد يتركه تورعا أيضا، ويستعمل بمعنى التقوى، وهو الكف عن المحرمات القطعية[2]، وقيل: الورع تصفية القلوب وحفظ اللسان وترك ما لا يعنيك من الأمور[3].

الأدلة على الورع

ورد في الورع أحاديث كثر فمنها:

1- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع»[أخرجه الحاكم، والطبراني، وسنده حسن].

2- قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اشترى رجل من رجل عقارا له، فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب. فقال له الذي اشترى العقار: خذ ذهبك مني، إنما اشتريت منك الأرض ولم أبتع منك الذهب. وقال الذي له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها، فتحاكما إلى رجل، فقال الذي

1() مقاييس اللغة (6/ 100).

2() كتاب الكليات (ص: 944).

3() كشاف اصطلاحات الفنون (2/ 1778).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

تحاكما إليه: ألكما ولد؟ قال: أحدهما: لي غلام. وقال الآخر: لي جارية. قال: «أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا على أنفسهما منه، وتصدقا»[متفق عليه].

3- عن النواس بن سمعان الأنصاري، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن البر والإثم فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس»[أخرجه مسلم].

وورد عن السلف مدحا عظيما للورع

يقول عمر رضي الله عنه: (كنا ندع تسعة أعشار من الحلال مخافة أن نقع في الشبهة أو في الحرام)[1]، قال حسان بن أبي سنان: (ما رأيت شيئًا أهون من الورع دع ما يريبك إلى ما لا يريبك[2])، وقال حبيب بن أبي ثابت رحمه الله: (لا يعجبكم كثرة صلاة امرئ ولا صيامه، ولكن انظروا إلى ورعه، فإن كان ورعًا مع ما رزقه الله من العبادة فهو عبد لله حقا).

كيف يتحقق الورع ؟

قال نصر بن محمد السمرقندي رحمه الله: (علامة الورع أن يرى عشر أشياء فريضة على نفسه.

1- حفظ اللسان عن الغيبة. لقوله تعالى: {وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا}[الحجرات:12].

2- الاجتناب عن سوء الظن. لقوله تعالى: {اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}[الحجرات:12].

3- الاجتناب عن السخرية؛ لقوله تعالى: {لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ}[الحجرات: 11].

4- غض البصر عن المحارم. لقوله تعالى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ}[النور:30].

5- صدق اللسان لقوله تعالى: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا}[الأنعام:152] يعني: فاصدقوا.

6- أن يعرف نعمة الله على نفسه لكيلا يعجب بنفسه. لقوله تعالى: {بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[الحجرات].

7- أن ينفق ماله في الحق ولا ينفقه في الباطل.

8- أن لا يطلب لنفسه العلو والكبر. لقوله تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا}[القصص: 83].

9- المحافظة على الصلوات الخمس في مواقيتها بركوعها وسجودها. لقوله تعالى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ}[البقرة: 238].

1() تنبيه الغافلين (ص: 472)

2() صحيح البخاري (3/ 53).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

10- الاستقامة على السنة والجماعة. لقوله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[الأنعام: 153])[1].

الورع عن المباح والحرام

الورع من السلوكيات المتينة في سير المرء، وتخلق المسلم بالورع يدل على متانة في دينه واستقامة في قلبه، فإن الورع باب من أبواب الخاصة، ولهم في العمل به عجائب شتى، وللورع أقسام مع الأعمال كالتالي:

1- **ورع العدول**، وهو الذي يجب الفسق باقتحامه وتسقط العدالة به ويثبت اسم العصيان والتعرض للنار بسببه وهو الورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء.

فأولى درجاته البعد عن الحرام الواضح في الشريعة.

2- **ورع الصالحين**، وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم، ولكن المفتي يرخص في التناول بناء على الظاهر فهو من مواقع الشبهة على الجملة.

فربما سأل بعضهم عن شيء في الحلال والحرام فرخص المفتي فيه للسائل، فالورع يبتعد عنه لما فيه من الاحتمال، رغم جواز فعله.

3- **ما لا تحرمه الفتوى ولا شبهة في حلّه**؛ ولكن يخاف منه أداؤه إلى محرم وهو ترك ما لا بأس به مخافة مما به بأس، وهذا ورع المتقين.

4- **ما لا بأس به أصلًا**، ولا يخاف منه أن يؤدي إلى ما به بأس؛ ولكنه يتناول لغير الله وعلى غير نية التقوي به على عبادة الله أو تتطرق إلى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية، والامتناع منه ورع الصديقين.

وهذه الأمور مجملة، وقد تناول بعض العلماء الورع ووزع أعماله على مدارك المرء، فعد منه الورع في السمع والبصر والشم واللسان والبطش والبطن والفرج والسعي والبيع والشراء[2].

من قصص أصحاب الورع

لقد كان لأهل الورع حكايات شتى في جانب المطاعم والمشارب وأمور الحياة بعامة، فقد جاءت أخت بشر الحافي إلى أحمد بن حنبل وقالت: إنا نغزل على سطوحنا، فتمر بنا مشاعل الظاهرية، ويقع الشعاع علينا، أفيجوز لنا الغزل في شعاعها؟ فقال أحمد: (من أنت؟ عافاك الله تعالى)، فقالت: أخت بشر الحافي، فبكى أحمد وقال: (من بيتكم يخرج الورع الصادق، لا تغزلي في شعاعها)[3] .

1() السابق، ص 473.

2() الورع لابن أبي الدنيا، موضوعات الكتاب.

3() الرسالة القشيرية (1/ 235).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

لقد كانت تسأل: هل يجوز لها أن تستفيد من ضوء شعاع الحرس والولاة حين يمرون عليها وهي في الظلام الدامس؟، فعجب أحمد بن حنبل من هذه المراعاة في المكاسب، وأرشدها إلى أنه لا يجوز لها أن تستغل شعاعهم المنبعث في عملها لغلبة الظلم على أمورهم.

اللقطة في العبادات تركيز لقيمة الورع

أفرد الفقهاء بابًا للقطة التي يجدها الشخص في الطريق، لكن العجيب أن الشريعة تدفع الذي يجد اللقطة لأن يكون هو الذي يبحث عن صاحبها، ولا ينتظره يبحث عما فقده، قال ابن قدامة: ومن وجد لقطة، عرفها سنة في الأسواق وأبواب المساجد، وإمساكها من غير تعريف، تضييع لها[1].

إنه لأمر عظيم أن يكون واجد المال هو الباحث عن صاحبه، ولم يكتف العلماء بهذا، بل ذكروا أن من وجد لقطة ولم يعثر لعام على صاحبها ضمها لماله، ووجبت فيها الزكاة.

وبعض الأشياء لا يجوز التقاطها، فصاحبها سيجدها حتما مع مرور الوقت، وذلك كناقة شردت أو بعير.

كيف أسست الشريعة لقيمة الورع؟.

لقد أسست الشريعة للتخلق بالورع في المطاعم والمشارب وسائر المكاسب، ففي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[أخرجه الترمذي].

وفي الحديث أيضا عنه صلى الله عليه وسلم: « إنك لن تدع شيئا لله إلا بدلك الله به ما هو خير لك منه»[أخرجه أحمد].

وفي الحديث أيضا عنه صلى الله عليه وسلم: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات: كراع يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه»[متفق عليه].

إن بعض الناس يستسهل أمور المكاسب والمطاعم، وربما يستسهل ظلم إنسان بسبب خصومه، وربما لا يتحرى في عمله الحلال، وربما لا يأتي به على الوجه الأكمل، وإنما ينبع هذا من مرض النفوس، وقلة الديانة، ونقص في الخوف من الله تعالى، وإنما ينشأ الورع بالأساس من محبة الله تعالى وخوفه، والحرص على مرضاته.

ومن أخذ من الورع فقد سار في طريق الاستقامة، وزكت نفسه، ولم تملها الشبهات ولا الشهوات.

1() المغني لابن قدامة (6/ 74).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

منهج

التزكية

المحاضرة الثامنة

الوقت هو الحياة

أكاديمية آيات
Ayat Academy

المحاضرة الثامنة: الوقت هو الحياة

في نهاية الدرس يستطيع الطالب أن :

1- يتعرف على بعناية الإسلام بالوقت.

2- ينتبه بخطورة التفريط في الزمن.

3- يذكر طرفا من عناية الصالحين بقيمة الزمن.

4- يعرف طرق المحافظة على الوقت.

يحتل الزمن والوقت في الإسلام مساحة واسعة من الاهتمام به، والزمن هو الحد الذي يمكن المرء من فعل الطاعات واكتساب المكرمات، لا يمكن لمن رام تزكية نفسه أن يمكث في البطالة، ويترك وقته سدى لا يهتم بالمحافظة عليه.

لقد كره الإسلام لأتباعه أن تغلب عليهم البطالة، وتضييع الزمن، وعدم استغلاله فيما ينفع صاحبه، وينفع الناس من حوله.

التزكية النفسية أحد مداراتها على المحافظة على الوقت، وحسن استغلال كل جزء فيه، ولا يترك وقته للصدف إلا فريق البطالين، الذي يضيعون في ردهات الحياة، ثم يفجعهم الموت وقد فرطوا في أغلى ما وهبهم رب العالمين.

يقول ابن الجوزي: (لقد شاهدت خلقًا كثيرًا لا يعرفون معنى الحياة: فمنهم من أغناه الله عن التكسب بكثرة ماله، فهو يقعد في السوق أكثر النهار، ينظر إلى الناس، وكم تمر به من آفة ومنكر. ومنهم من يخلو بلعب الشطرنج، ومنهم من يقطع الزمان بكثرة الحديث عن السلاطين، والغلاء والرخص، إلى غير ذلك؛ فعلمت أن الله تعالى لم يطلع على شرف العمر ومعرفة قدر أوقات العافية إلا من وفقه وألهمه اغتنام ذلك)[1].

لقد كان السلف الصالح ومن سار على نهجهم من الخلف أحرص الناس على كسب الوقت وملئه بالخير، سواء في ذلك عالمهم وعابدهم، فقد كانوا يسابقون الساعات، ويبادرون اللحظات، ضنا منهم بالوقت، وحرصا على أن لا يذهب منهم هدرا [2].

عناية الإسلام بالوقت

الوقت هو رأس مال المسلم الذي به يتاجر مع الله تعالى، وما عمر المرء إلا أجزاء من الوقت تتشابك بعضها تلو بعض لا تنفك، والوقت يشبه النهر الذي يسبح فيه الإنسان ويتوسط مياهه، ففي كل جانب من جوانبه شيء منه، فخلفه وقت مضى، وهو في مكانه في وقت، وفيما يستقبله وقت، ويمكن أن يتخيل المرء كالهواء الذي يتنفسه، فبعضه مضى، وبعضه في جوفه سيخرج، وبعضه سيتنفسه عن قريب، ثم تصير حياته بعد حين إلى قصة يرويها التاريخ أو مرثية تتناقلها الأجيال، وربما طوته عجلة الزمن فلا عرفه أحد بعد توسيده في القبر، وجعل التراب فوق جثمانه.

1() صيد الخاطر (ص: 241).

2() قيمة الزمن عند العلماء (ص: 26).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

في سورة قصيرة من سور القرآن يأتي هذا القسم من الله تعالى : {وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3){العصر: 1 – 3]

أقسم سبحانه بالعصر، وهو الزمن والوقت الذي فيه حياة المرء، وفيه دنياه، قال الرازي : في المراد بالعصر أقوال منها أنه الدهر، فكأن المعنى: والعصر العجيب أمره حيث يفرح الإنسان بمضيه لظنه أنه وجد الربح مع أنه هدم لعمره وإنه لفي خسر[1].

وقال سبحانه وتعالى في شأن الزمن أيضا: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا}[الفرقان: 62]، فموقع المرء من الليل والنهار هو التذكر وشكر المنعم سبحانه وتعالى، واستغلال ما فيهما من مساحة زمنة لمرضاة الله تعالى.

وقد أقسم الله تعالى، بالشمس والقمر، والليل والنهار والصبح والضحى، وهي أسماء الوقت وأجزاء الزمن، وذاك إشعار بقيمة الزمن، وتنبيه إلى أهميته[2].

وجاءت السنة تعلي قيمة الزمن، وتوجه للمحافظة عليه ففي الحديث: «نِعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من النَّاسِ : الصِّحَّةُ والفراغُ»[أخرجه البخاري].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[أخرجه النسائي، والحاكم].

إن أهمية الوقت تتبدى أيضا في قوله صلى الله عليه وسلم : «لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس، عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم»[أخرجه الترمذي].

فالآخرة دار فيها حساب على نعم الله تعالى الممنوحة، ومنها الوقت الذي فيه الطاعات والعبادة لله رب العالمين.

خطورة التفريط في الزمن

إن العمر والزمن جزء مما يحاسب عليه المرء، فليس هو بالشيء المهدر الذي ينفقه كيفما أراد، وليس هو بالمخزون المباح الذي يستخرج منه دون أن يسأل عنه، قال ابن القيم: (إضاعة الوقت أشد من الموت لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا)[3]، وقال: (أعظم الإضاعات: إضاعتان ؛ هما أصل كل

1() تفسير الرازي (32/ 277).

2() قيمة الزمن عند العلماء (ص: 20).

3() الفوائد لابن القيم (ص: 31).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

إضاعة؛ إضاعة القلب، وإضاعة الوقت، فإضاعة القلب من إيثار الدنيا على الآخرة، وإضاعة الوقت من طول الأمل)[1].

وقال ابن الجوزي: (رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعًا عجيبًا: إن طال الليل، فبحديث لا ينفع، أو بقراءة كتاب فيه غزاة وسمر! وإن طال النهار، فبالنوم! وهم في أطراف النهار على دجلة [2] أو في الأسواق! فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة، وهي تجري بهم، وما عندهم خبر!، ورأيت النادرين قد فهموا معنى الوجود، فهم في تعبئة الزاد، والتأهب للرحيل، إلا أنهم يتفاوتون، وسبب تفاوتهم قلة العلم وكثرته، بما ينفق في بلد الإقامة... فالله الله في مواسم العمر، والبدار البدار قبل الفوات، واستشهدوا العلم، واستبدلوا الحكمة، ونافسوا الزمان، وناقشوا النفوس، واستظهروا بالزاد، فكأن قد حَدَا الحادي، فلم يفهم صوته من وقع دمع الندم)[3] .

وكأن ابن الجوزي يشاهد هؤلاء الذين يشكون طول الفراغ، ولا يجدون سوى البطالة في تفريغ ما لديهم من فائض الوقت، وكثير الزمن.

عناية الصالحين بقيمة الزمن

لقد كان للسلف رضوان الله عليه عناية فائقة بالزمن، كان مبعثه الحرص على تكميل النفس بالفضائل، وإكسابها معالي الأخلاق، فكان الزمن هو الوعاء الوحيد لهذا، ولسلفنا الصالح في الحفاظ على الوقت أعاجيب، فابن عقيل صاحب كتاب الفنون، وهو أكبر تأليف عرفته الإنسانية تقريبا، كما قال الحافظ الذهبي[4]، يقول عن نفسه: (إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي، وأنا مستطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره. وإني لأجد من حرصي على العلم. وأنا في عشر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة)[5].

طرق المحافظة على الوقت

لا يستطيع المرء أن يحافظ على الوقت إذا ترك نفسه للظروف التي تصادفه، فمما يعينه على المحافظة على الوقت أن يحدد أمورا ينجزها على مدار اليوم، وعلى مدار الأسبوع، وعلى مدار الشهر، وعلى مدار العام، ثم يأخذ في حساب نفسه نهاية يومه وأسبوعه وشهره وسنته عما أنجزه، فإن من حاسب نفسه على تفريط أو غاية لم يدركها أوشك أن يحافظ على كل لحظة تمر به، وإنا لنلاحظ أن طلاب المدارس حين تدهمهم الامتحانات يضنون بأوقاتهم أشد ما يكون، وذلك لما ركب في طباعهم من حب التفوق، والجد في تحقيق الأهداف، وهكذا من وضع لنفسه هدفا فإنه

1() الفوائد لابن القيم (ص: 112).

2() يقصد النهر المشهور في العراق.

3() صيد الخاطر (ص: 157).

4() تاريخ الإسلام (35/ 351).

5() ذيل طبقات الحنابلة (1/ 324).

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

يحرص على كل لحظة من عمره، وفي سبيل ذلك تراه يرى أن الوقت لا يسعف أمانيه، وأنه بحاجة إلى مزيد منه حتى إن ما يتوق له يراه أكبر من أن يستوعبه الزمن.

كما يعينه أيضًا أن أي وقت يضيع دون أن يكتسب فيه جديدًا، فهو عليه لا له، ويعينه على ذلك القراءة في سير أصحاب الهمم وتطلعه أن يحاذيهم فيما وصلوا له وإليه، فإن النفوس إذا تعلقت بأصحاب الهمم تاقت لها، وتمثلت خطاها في كل بادرة، أما إذا نافس المرء من حوله في كثرة النوم أو كثرة اللهو، فإنه لا يستفيق إلا على ضياع العمر وسبق الأقران وفوات حظوظ كان يمكنه إدراكها.

فالمتطلعون لحفظ القرآن يتأتى لهم الحفظ على قدر تحديد الهدف، فمن حدد لنفسه جزءا كل أسبوع، فسيرى أن الوقت لا يكفيه وهو يضن به ويحرص عليه أشد الحرص، فإذا أوسع الزمن على نفسه ضاع جزء من الوقت كان عليه ألا يضيعه.

وقد قال بعضهم إن خمسة من الشباب اتفقوا مع أحد المحفظين أن يحفظوا معه القرآن، فاشترط عليهم قبل أن يبدأوا معه شرطًا، كان مفاده أنه لا يقبل إلا ذوي الهمم، وإن هناك حدا من الحفظ كل يوم لا يقبل إلا به، فسألوه عنه فقال: هذا امتحان لكم، فلتأتوني من الغد لأرى همة كل واحد منكم في الحفظ، فمن كانت همته متوافقة مع الحد قبلته، ومن كان غير ذلك رددته.

فبات الشاب يومهم في جد وحفظ واجتهاد حتى يثبتوا للشيخ أنهم من أصحاب الهمم، فلما حضروا بين يديه أعطى كل واحد منهم ورقة يدون فيها ما حفظه طول اليوم الفائت، فكتب كل واحد ذلك، ثم أخذ يستمع لهم واحدًا تلو الآخر، ثم قال لهم: هذه همتكم، ولن أقبل بغيرها كل كتب ما يستطيعه في يوم، فمن كان قادرًا على أن يأتيني كل يوم بهذا القدر قبلت منه، وإلا فلا يأتي إلي مرة أخرى، فألزمهم همتهم وعلى قدرها.

من هنا يمكن للمرء أن يقيس ما يضيع منه من الوقت لو اختبر نفسه في القدرة على القراءة، أو الحفظ، أو مساعدة الغير.

وبهذا يمكنه ضبط وقته وعمله وحياته كلها... إن لم يكن في كل وقت ففي غالب أيامه.

ثم ليذكر دائمًا أن العمر هو رأس مال الإنسان.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

مصادر ومراجع

كتب الحديث:

1- صحيح البخاري.
2- صحيح مسلم.
3- سنن أبي داود.
4- سنن الترمذي.
5- سنن النسائي.
6- سنن ابن ماجه.
7- مسند الإمام أحمد.
8- المستدرك، للحاكم.
9- سنن البيهقي.

كتب اللغة:

10- الصحاح، للجوهري.
11- لسان العرب، لابن منظور.
12- المصباح المنير، للفيومي.
13- كشاف اصطلاحات الفنون، للتهناوي.
14- التعاريف، للمناوي.
15- التعريفات، للشريف الجرجاوي.

المصادر والمراجع الأخرى:

16- إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي.
17- آداب الحسن البصري، لابن الجوزي.
18- جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي.
19- حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصفهاني.
20- الداء والدواء، لابن قيم الجوزية.
21- الرسالة القشيرية، لأبي القاسم القشيري.
22- الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر المكي.
23- صفة الصفوة، لابن الجوزي.
24- الفوائد، لابن القيم.
25- قيمة الزمن عند العلماء، للشيخ عبد الفتاح أبي غدة.
26- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، لمحمد بن علي التهانوي.
27- مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

28- المستطرف في كل فن مستطرف، لبهاء الدين الأبشيهي.
29- نضرة النعيم، لعدد من المتخصصين بإشراف: الشيخ صالح بن حميد، عبد الرحمن بن ملوح.
30- الورع، لابن أبي الدنيا.

أكاديمية آيات
Ayaat Academy

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية آيات
Ayaat Academy Crop. Canada

هذا الكتاب

لقد عني علماء السلوك والتزكية بتعزيز رقابة الضمير، وتحسين باطن العبادة؛ لما لحظوا أن الشريعة جاءت برفض العبادة التي تراعي الشكل ولا تراعي المضمون، يهتم صاحبها بالتنظير ولا يهتم بالسلوك، ومؤلفاتهم في أعمال القلوب ومقامات الدين شاهدة على ذلك، وهي محاولات مبكرة ظهرت في تاريخ الحضارة الإسلامية، لما أغرق بعض المسلمين بالمادية، وقلدوا غيرهم من الأمم في أنواع الترف.

وهذا الكتاب هو محاولة لتعزيز رقابة الضمير وقيمة الإيمان بالغيب في نفس الإنسان وفق تعاليم الشريعة، وهو يبين سبل التجاوز بالعبادة والأخلاق حدود الصحة إلى حدود القبول، وهو يمهد السبيل للوصول لرتبة الإحسان المرتبة الأعلى في مراتب الإيمان.

إنه المنهج التربوي والدليل القِيَمي الذي تقدمه أكاديمية آيات للعلوم الإسلامية لطلابها الكرام، تعينهم به على تزكية قلوبهم والارتقاء بأخلاقهم إلى العلياء التي يريدها لهم دينهم.

التعريف بالمؤلف

دكتوراه في الفلسفة جامعة القاهرة، مدرس أصول الدين والدعوة جامعة المدينة العالمية - ماليزيا، تخرج في الأزهر الشريف، كلية أصول الدين، وتخرج في دار العلوم، وحصل منها بعد تخرجه على الماجستير والدكتوراه في الفلسفة الإسلامية، له عدة مؤلفات وبحوث علمية محكمة، وهو عضو محكم بعدد من المجلات العلمية، وأشرف وناقش عدداً من رسائل الماجستير والدكتوراه بعدة جامعات، وله مقالات في مجلات الأزهر، والوعي الإسلامي، والعربي، والمجتمع، وعدد من المواقع العالمية.

Caulfield Cres., Mississauga, ON L5M 6J7 - Canada 3054
Tel . : +1 (647)633-3491
E-mail : info@ayaatacademy.ca
ميساساجا - أونتاريو - كندا
www.ayaatacademy.ca

أكاديمية آيات
Ayaat Academy